جدلية الذات والآخر في الفكر العلوي

عهد مالك الأشتر أنموذجا

كتبه

أ.م.د صفاء عبد الله برهان و الباحثة ختام رشيد الرضوي

كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد

مدخل:

كان لأمير المؤمنين علي عليه السلام، أن يرسل في هذه الأمة الكثير من الأخلاقيات والسلوكيات والمبادئ، التي تستند في أسسها إلى الرؤى القرآنية والنبوية الشريفتين، بما يدفع إلى تكوين مجتمعات رصينة، تأخذ أدوارها المتنوعة سواء أكانت اقتصادية أم اجتماعية أم سياسية، وكان له الموقف الكبير من خلال الإشراف عليها نظريا ومتبعتها تطبيقيا، وقد رسم من خلال هذه الشرعة العلاقة الجدلية الرابطة بين الولاة والمجتمعات، وهو ما يبعث أنموذجا ملموسا لعلاقة الذات والآخر، وما أفرزته من ثقافة مرموقة تحمل بعدها العملي، وما كان لها من تأثير في سلوكيات أبناء ذلك العصر.

ومن هنا فقد كانت هذه السطور اليسيرة، التي أخذت على عواهنها، دراسة لمحة من تشكلات الذات والآخر في الفكر العلوي، معتمدة في ذلك على العهد العلوي المبارك، لسيدنا مالك الأشتر وقتما ولاه ولاية مصر، وقد جعله بوساطة هذا العهد يتسلّح بأدوات منهجيّة رصينة، تستلهمُ سيرة الرسول والوصي عليهما السلام، ومن ثم توظيف ما تفرزه في سبيل النظر إلى الآخر بنحو مبين.

وعلى وفق ذلك كان للعهد العلوي، أن يتطرق إلى تلك الفئات من خلال ما تعرضه الظروف المحيطة، وما تفرضه المناخات الروحية المقدسة، تبعا للذات العلوية المباركة. فجاء هذه البحث معرفا بمفهوم الآخر، ومن ثم عرض الصور التي رشحت من ذلك العهد، وهي الحاكم والحاشية والرعية والعدو. وتقدّيم ذلك بنحو مكثّف؛ تبعا لمساحة البحث ولقصور الشمول بكل ما تجوده من أفكار، إزاء الآخر الذي يشاك في الحياة والدين، حيث النتائج التي جاء بها هذا البحث.

تأصيل نظري:

يَرشح مفهوم الآخر من ضروب الانطباعات الذاتية، التي تحتوي فكر الذات المقابلة له ورؤيتها وسلوكها، وهي بذلك تسعى إلى أن تنطلق بالآخر في آفاق أرحب، تتشكّل بوساطتها تلك النقطة الملتصقة بنشوء الإنسان، وهواجسه ومتطلباته وسلوكه وأبعاده، بما يمكنه من سبر العلاقات السياسية والتربوية والثقافية والمتنوعة، ضمن شبكة طبيعة المجتمعات المنظمّة للأفراد والجماعات، لهذا جاءت الرؤية المتراكمة لمفهوم الآخر؛ لتعرفه بأنه (عبارة عن مركب من السمات الاجتماعية والنفسية والفكرية والسلوكية التي ينسبها فرد ما أو جماعة ما إلى الآخرين).[١]

ومن هنا ندرك بيسر أن ثمة مناخات متنوعة، تطلق الحرية للنظر بوضوح إلى الاختلاف في طبيعة العلاقات الكثيرة، التي تؤسس معها أصول التعامل مع الآخر؛ وطبيعية التنوع الذي تحمله هذه الثنائية (الذات_ الآخر)، والذي يتجاوز المفهومين المتوازيين، إلى بيان معالم الآخر وخصوصياته، وبهذا (ينطلق الآخر أحيانا من نيات مسبقة ليقدّم للآخر بما يتلاءم مع خلفياته الدينية والأخلاقية والفكرية والسياسية، لا مع واقعه أو مع ما وجده عليه).[٢]

وتمسك هذه الإشارة واقعية الاختلاف المنتج في الرؤى، بما يجعل مهمة التنميط مسايرة لمناحي الشخصية المتناظرة، بما يؤكد بما لا يقبل الشك أن طبيعة الاختلاف عنصرا مهما في مؤشرات كشف الآخر؛ لما تصنعه من أجواء التقارب والتعارف بين الأفراد والمجموعات، ووضع الحدود لكل فئة، وتبين حاجتها الفعلية، وصلاحياتها، وبمعنى آخر ما لها من حقوق وما عليها من واجبات.

---

[١] صورة الآخر العربي حول مفهوم صورة الذات وصورة الآخر: فتحي أبو العينين: ٨١٤.

[٢] صورة الآخر في الرواية العراقية الحديثة: د. محمد قاسم لعيبي: ٢٦.

صورة الحاكم:

حِيكَت صورة الحاكم في الفكر العلوي، من تطور الحيثيات التي جعلت من الذات العلوية المقدّسة، أساسا لمنظومة الحاكمية، التي وضعت وجودها الشريف إزاء شخصية الحاكم، سواء أكان بنحو أفقي يوازيه في السلطة، أم بنحو عمودي يتبعه في الطاعة، ومن هنا نفهم أنه (عندما يشار على الحكام أن يكونوا حازمين، كيما يقوموا بواجبات الحكومة، فإنهم يكونون عرضة لتجاوز حدود العزم والسقوط في القسوة، حيث تترك الاصلاحات، وتقاس التسويغات).[٣]

لقد وجد أمير المؤمنين علي عليه السلام، كثيرًا من الاختلاف في معطيات الحاكم المتراكمة برؤى سواه من جهة، والمتزاحمة بسيل أفكاره وسلوكياته الذاتية من جهة أخرى، بما وسّع من أفق التباين بين الأفراد والمجتمعات بنحو عام؛ نتيجة التفاعلات الإنسانية وحقيقتها التي تتحدّد بالواقعية المعاشة و المؤطرة سياسيا واجتماعيا ونفسيّا وثقافيا و اقتصاديا؛ لتكون النظير الذي يقف بموازاة خط مختلف في المنهج التعبير والتصور؛ إذ على وفق هذا التصور نجد (شخصية الأنا المتضخمة النافية للآخر، هي من السمات المترسّخة في الخطاب الشعري ومنه تسرب إلى الخطابات الأخرى).[٤]

ويمكن تلمس ذلك في تصدير أمير المؤمنين علي عليه السلام، عهده لواليه على مصر مالك الأشتر رضوان الله عليه، إذ جعله ضمن إطار يغرس الثقافة العلوية المستندة إلى الأسس الشرعية، بما يوقف المتلقي على تلك المؤثرات الأساسية في سيرة الوالي، ومن دونها لا تضمن التأثير ثقافة الحاكم في عماله، وتضعف دورها في الوقوف عند مهامه حصرا، عندما أرسل كلماته: (هذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ

---

[٣] الإمام علي وميكافيلي: د. عباس خضير كاظم: ٢٣.

[٤] المركزية الإسلامية صورة الآخر في المخيل الإسلامي خلال القرون الوسطى: د. عبد الله إبراهيم: ٩٧.

عَلِيٌ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الأشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وَلاَّهُ مِصْرَ: جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلاَحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلاَدِهَا).[٥]

فقد ذكرت هذه الكلمات بحقيقة الخليفة، الذي هو عبد الله وكفى بذلك شرفا، وقدمه على اسمه، ومن ثم أعقب بوضعه في الأمة، ما يأخذ بأيدي الوالي إلى أهمية طاعة الله تعالى، وحتمية الانتباه إلى أهمية هذا الترتيب، وما تعنيه من دلالات الرملي بأن هذا التأثير يتبعه تأثير آخر في الآخر وهو (الوالي)، عندما ذكره باسمه، ومن ثم يذكر السبب الذي جعله يخاطبه (حين ولاه مصر)، بما يمهد ذهنية هذا الآخر للوقوف عند الحد الذي اختطه له الله تعالى، ورسوله الكريم صلوات الله عليه، وأكّده أمير المؤمنين علي عليه السلام، وبعدها ينتقل إلى وضائف الوالي الأساسية وبنحو مكثّف، وهي (جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلاَحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلاَدِهَا)، وما تشكله من مقاصد ترتكز على ما قبلها في إقامة الحكومة العادلة. ما يضمن تأثر (سلوك الفرد تجاه الآخر بالانطباع الذي يتكون عنه، استنادا إلى طريقة الإدراك ، وكيفية التعاون مع المكون الثقافي والاجتماعي لهذا الآخر)[٦]

بعد ذلك يلفت أمير المؤمنين علي عليه السلام، أنظار حواريه مالك الأشتر إلى ماضي تلك البلاد، وضرورة وضعه إمام أنظاره بما يمكن أن يحدثه من تغيير في مسيرتها، نقرأ من ذلك: (ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلاَدٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلاَةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ؛ وإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ).[٧]

---

[٥] نهج البلاغة: جمع الشريف الرضي: ٢١٢.

[٦] أنا والآخر سايكولوجية العلاقات المتبادلة: عبد المنعم شحاتة: ٤٠.

[٧] نهج البلاغة: ٢١٣.

وهنا نجد الشخصية العلوية المقدّسة، تأخذ بيد الآخر الوالي إلى حال آخرين غيره، وهم الولاة الذين سبقوه في مصر، ويخرج له بدرس من أولئك الآخرين و تلزمه فى متابعة سيرة أهل الصلاح منهم، وأنه كان ذات يوم من الرعية التي تنظر إلى راعيها، فما ظهر منه من قول أو عمل، كان على ألسنتهم جاريا، وهو بذلك ينبه إلى أمر آخر على الوالي تلقيه من طرفين الأول وهو الولاة السابقون، والآخر وهم الرعية، ويجعل من الآخر ميزانا لنفسه ولغيره، من خلال هذه المعادلة التي جعلته يتقلّب بين تلك الأحوال، وهو ما يذهب به إلى بيان مظاهر الصورة الاجتماعية التي تلقي بظلالها على الصورة السياسية المتمثلة بالوالي، وتعبر عن ثقافة مزمنة نجحت الرعية في إلصاقها في الوالي، الذين أطلقوا الأحكام على الولاة بما أجراه الله تعالى على ألسن الرعية، والتي تشير إلى أن درجة تجذّر خصوصيتها في الرعية تجاه الحاكم، الذي عليه أن لا يغفل عمّا تحتاجه تلك الرعية، وإلا فإنه ينزلق إلى درك الهاوية عقابا، والذم بتلك الألسن مآلا.

وتتوالى طريقة رسم الآخر الذي هو متوالية الخطوط العريضة، لصورة الوالي دون أن يمعن في بيانها، وبيان أهميتها في الفكر العلوي الذي لم يترك الخطوط العريضة دون بيانها، وضرورة الالتزام بها كما يقول هذه المرة: (وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً. فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لاَ تَقْدر عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ. وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ. ويَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ! إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ). [٨]

[٨] نهج البلاغة: ٢١٣.

الواقع الذي يرسمه هنا هو تلك الذلة التي يجب أن تدخل ذات الوالي، إزاء ملك الله تعالى وجبروته الذي لا مهرب منه، وضرورة تجنب ما يحيط الولاة من الغرور والاختيال بما هم فيه، نتيجة مطاوعة شيء من الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والتي وجدوها مواتي لهم دون الرعية، نتيجة مل احتواهم من ملك، وعلى الوالي أن ينغمس في وسطه الاجتماعي، وأن لا تحركه بواعث حاله للتشبه بجبروت الله تعالى، وهو ما يجب أن يتجلى في ذهن الوالي وكذلك في تصرفاته التي تسيطر عليها حقيقة واحدة، تتمثل في العبودية الخالصة لله تعالى، وأن يكون مفتقرا لرحمته وكرمه، وإن كان واليا أو حاكما، وهو ما تردد في موضع آخر من ذلك العهد الشريف؛ كقوله: (أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوىً مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلاَّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ، وَمَنْ ظَلَمَ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ لله حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ أو يَتُوبَ).[٩]

إن المنهجية التي يختطها الفكر العلوي في تأملات الآخر، تأخذ بالتمدد في ما يجاورها، ويظهر ذلك واضحا في ما يحصره هذا التوجيه العلوي، حيث المقربون من الوالي، وهم خاصة الأهل ومن له هوى في وجدانه، والحقيقة أن هكذا تصور يعطي المتقي، ضرورة أن تكفل لبقية الرعية الكثير من الحريات والحقوق، بل والدعوة إليها، ونشر ثقافة الحد من الوساطة والمحسوبية، التي تضمن الطرائق السلمية لنيل الحقوق، وهو ما ينبغي أن تكون عليه حكومة الولايات، ما يفتح الآفاق أمام الرعية، وبخلاف ذلك فإنه يجلب نقمة الله تعالى، وهو ما يؤكده في قوله: (وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ .وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ

---

[٩] نهج البلاغة: ٢١٥.

بِرِضَى الْخَاصَّةِ وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ، أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلاَءِ، وَأَكْرَهَ لِلإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالإِلْحَافِ وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ، وَإِنَّمَا عَمُودُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ للأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُم).[١٠]

وفي ضوء هذا النص الذي نقلناه على طوله، نجد أن الفكر العلوي يرسم سوء المصير لحال الآخر المتمادي في طغيانه، بما لديه من السلطة والحكومة، وبيان التحذير الحال التي لا يجب أن يكون عليها، وهو ما يؤكد أن النظرة العلوية للحاكم أو الوالي، كانت تركز على جانب عدم الانجرار وراء إغواء السلطة، الذي يقع فيه الكثير من الولاة، ما استدعى أن يواجهه بكثرة التحذيرات للآخر، وما ذلك إلا طاعة لله تعالى ورفقا بالرعية، التي يجعلها معادلا اجتماعيا للولاة، ومن ثم فإن (هذا الحكم العميق وهذا الفهم العميق على ما كان يعرض عليه من مشكلات، وما كان يستفتي فيه من مسائل، إلا نتيجة لما أخذ به لنفسه من التفكير العميق، فيما كان يعرض أمامه في الحياة اليومية لابن عمه، إلا نتيجة لملازمته هذه المدرسة النبوية المحمدية، التي كان ربنا تبارك وتعالى يعدها لدينه).[١١]

وهو ما يعني أن الرؤية العلوية، كانت تتكر هذا النوع من السلوكيات التي تذهب ببهاء الملك وعدالته، وما يجر عليه من تبعات سيئة في نفوس الرعية، التي هي في أمس الحاجة للطمأنينة الاجتماعية.

---

[١٠] نهج البلاغة: ٢١٤.

[١١] الإمام علي أقرب المقربين وأعظم المقتدين بالرسول الأمين: عبد المنعم حمادة: ١١٩.

صورة الحاشية:

شغلت الحاشية حيزا معلوما من الفكر العلوي، وهو ينظر إلى الآخر بما تظهره المشاهدات ذات الأثر الكبير؛ فقد أبرزت جزءًا مهمًا من أجزاء المنظومة الاجتماعية حينذاك، وقد كان لتأملات أمير المؤمنين علي عليه السلام، أن تتابع ما تفرزه تلك الطبقة من معطيات، تنفتح على أطر جديدة للذات (الأنا)، بوساطة العلاقات النمطية التي تمسك أوصال المعهودة في تلك الحاشية، بوصفها الحلقة المتوسطة بين الوالي والرعية، وعلى وفق ذلك فقد كان (الإمام إذن يتحدث وكأنه يشرح حال الأمة في الزمن المعاصر، فالأغنياء دوما ما يتقربون من الحكام حتى يصيروا في النهاية بطانة لهم، وقلما يرضى غني أن يتساوى مع فقير، سواء في الغنى أو في العدل).[١٢]

تعرض صورة الوالي من خلال ما تقدّمه من مجتمع تنظر إليه، والتي لا تدركها الذائقة الخاصة للحاكم؛ بما يوضّح حاجة الطرف المُستقبِل للوصول إلى الأهداف المنشودة من عدم معاشرة الآخر، التي يعملون على القفز على واقعهم المُعاش، ومن هذا نفهم أنه (لا يتشكّل وعي الإنسان بصورة حقيقية إلا حين يبدأ بوعي علاقته بالآخر الذي يعد نقيضا ومكملا في الوقت نفسه للأنا).[١٣]

لقد بين الفكر العلوي الرصين، أن هناك الكثير من الأمور التي يجب أن يلتف إليها، عند التعاطي مع حاشية الوالي، وأن على المتلقي لأحوال تلك الطبقة من الوقوف بحذر إزائهم، والراجح أن السبب في ذلك التوجه، هي طبيعة الحاشية وأثرها الكبير، الذي تذهب بهم إلى الميل عن الحق، بل يرون أنهم الأحق فيما رزق الله،

---

[١٢] التنمية الشاملة والعدالة الاجتماعية في فكر الإمام علي: علي أبو الخير: ٢٩٠.

[١٣] صورة الغرب في الأدب العربي رواية فياض لخيري الذهبي: ٨٨.

ومن هنا حذر من (البطانة)، يقول: (ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وبِطَانَةً، فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَة، فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الأَحْوَالِ، وَلاَ تُقْطِعَنَّ لأَحَدٍ مِنْ حاشِيتِكَ وَحَامَّتِكَ قَطِيعةً، وَلاَ يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَةٍ، تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ، فِي شِرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ، يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ).[١٤]

وهذه الصورة التي ترسم للآخر التمثل بالحاشية، ترتقي الأصول الاجتماعية التي تبنى عليها منظومتهم الفكرية، واحتكارهم الحضور المتميز في حياة الناس، بما يسجل شهرتهم وتنعمهم على حساب الرعية ويولد سخطهم، ومن ثم اضطراب الأمور، فضلا عن الشأن الأكبر وهو نزول نقمة الله تعالى ولو بعد حين؛ ليبين بعض الأمور التي يجب أن تؤخذ بالحسبان من قبل الوالي في حاشيته، وهي قوله: (وَلاَ تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشّ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ .وَلاَ تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ الْفَقْر وَلاَ جَبَاناً يُضعِّفُكَ عَنِ الأُمُورِ، وَلاَ حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ. شَرُّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ للأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيرًا، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الآثَامِ، فَلاَ يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الأَثَمَةِ وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ).[١٥]

تبرز شخصيات مهمة من بطانة السلطان، تؤدي دورها مهما في بناء القرارات والقضايا المهمة، التي تمثلت في (العيون، والمشاور، والوزير)، وما تمثله من أثر واضح في تسيير الأمور كافة، فالأول يعهد ليه باطلاع الحاكم على الأخبار، والثاني بما يجب عليه أن يصرف من موارد في أمور البلاد و العباد، أما الآخر وهو الأهم (الوزير) بما يمثل من ظل للسلطان، في حركاته وسكناته، ونلحظ أن أمير المؤمنين علي عليه السلام، يرسم الحدود الصحيحة لهذه الأصناف المهمة

---

[١٤] نهج البلاغة: ٢١٦.

[١٥] المصدر نفسه: ٢١٦.

في بطانه السلطان، فيبعد من (العيون) من يسعى دوما قبل غيره في الأخبار، ومن (المشاور) البخيل والجبان والحريص؛ لأنهم سينقلون ما يؤمنون به، قولا وفعلا ما يؤدون بتلك الممارسات في حياتهم، إلى إيجاد تقلبات محلية وخارجية، لا تخدم الراعي والرعية معا، فضلا عما نبه إلى قوله: (البخل والجبن والحرص) من سوء الظن، الذي يبني واقعا مزعجا في تدبير أمور البلاد الاقتصادية والأمنية.

بعد ذلك ينتقل إلى الشخصي الأكثر أهمية، وهي الوزير التي يرمق فيها خلة واحدة، وهي استيزاره للأشرار، فإن وجدت فعليه أن يبارح ذلك الوزير؛ لأنه قد أسهم في الكثير من الخطايا والآثام التي وقعت في حكومة الفارطين، وسكون ذا استعداد ذهني وسلوكي لترديدها في الحكومات اللاحقة، ومع هذا فهو لم يترك الأمور على عولهنها ؛ إذ يرسم معالم الآخر (الوزير) الذي يجب أن يكون في بطانة السلطان، وهو قوله: (وَأَنْت وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ ممَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ. وَأَوْزَارِهِمْ وَاثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى إِثْمِهِ، أُولئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً فَاتَّخِذْ أُولئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلاَتِكَ، ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ، وأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ).[١٦]

والحقيقة أن الصفات التي يطلقها الفكر العلوي في اختيار الوزير، هو ما رسمه الله تعالى ورسوله في الصاحب المقرّب من صاحبه، وفي المؤمن الذي يجب أن يحظى بالقرب والأخذ بالنصيحة، حيث الإيمان والتقوى والورع والشجاعة في قول الحق وعدم التزلف والتصنّع والمداهنة. وما كان ذلك إلا لخطورة المنزلة التي يحتلها في الدولة الإسلامية، وأهمية القرارات التي تصدر من الوالي والسلطان معا، وبمشورة هذا الوزير، الذي عليه أن يجنب النفس أهوائها ونوازعها وهواجسها الشخصية.

---

[١٦] نهج البلاغة: ٢١٦.

صورة الرعية:

هذا القسّم من الآخر كان محل اهتمام الفكر العلوي؛ نتيجة ما يملكه من مؤثرات عريضة في مناح متعددة، وبيان توازي صورة الآخر تحت هذا العنوان، بما يمكن من جمع صورة واقعية لحالهم، وكونهم القسم المعني من إقامة الولاة في سياقاتها الطبيعية، وقد كان هذا التوجيه العلوي ذا شمولية واضحة، في بيان أهمية الرعية بوصفها الذخيرة البشرية، التي يؤخذ منها ما يشغل الوظائف، فضلا عن توجيه العناية لهم بوصفهم رعايا في ذمة الراعي المسئول عنهم، ووجوب العناية بما يكون منهم معوزا أو مظلوما، إزاء ما يلحقهم من ظلم من الولاة أو بطانتهم أو من يتزلف لهم من ذوي الجاه. ما يؤكد أن (العدل والحرية يمتزجان في هذا الموقف امتزاجا، يبرز خصائصهما من وجه، ويظهر جوهر العظمة في شخصية علي الحاكمة من وجه آخر، فنحن نراهما يشتبكان من موقف علي في واقع يجسد أمام عيوننا مفهوميهما النظريين متعاونين، يتمم أحدهما الآخر في طار من وحدة النظام الأساسي).[١٧]

لقد بين الفكر العلوي ذلك الترابط الكبير بين طبقات الرعية، وأكّد في الوقت نفسه ما يجب أن يكون عليه السلوك الجمعي، الذي يجب أن يتهذب من خلال الاحتكاك بثقافة الآخر المتناظر، التي يجب أن تتواصل ضمن منظومة مثالية يفرض ظلاله على الجميع، نقرأ من هذا النص: (وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ، وَلاَ غِنَىً بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ: فَمِنْهَا جُنُودُ اللهِ، ومِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ، وَمِنهَا عُمَّالُ الإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ، وَمِنهَا

[١٧] حكم علي اتحاد للعدل والحرية: صدر الدين شرف الدين: ٤٨.

الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ؛ وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللهُ سَهْمَهُ وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله عَهْدا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظا)[١٨].

ويبرز هذا التصنيف لطبقة الرعية، الوجود الحقيقي لها وما تؤديه من مهام، وما عليها من واجبات ولها من حقوق، التي يجب أن ينظر ليها من خلال الزاوية التي تشغلها، ولم يفرّق الفكر العلوي فيمن كان مسلما أو غيره، وبين حتمية الأخذ بكتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد ، صلى الله عليه وآله، وهو الأمر الذي يبين وقوع الكل تحت حكم واحد، بغض النظر عما يعتقده أو ما يحتله من منزلة، ومن هذا التصنيف العام، ينتقل أمير المؤمنين علي عليه السلام، إلى صنف مخصوص من هذه الرعية، وهم الجنود، الذين وصفهم بقوله: (فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلاَةِ، وعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِهِمْ. ثُمَّ لاَ قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلاَّ بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا أَصْلَحهُمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ).[١٩]

يدرك المتأمل لهذا النص العلوي الكريم، أن الصنف الأساس في حفظ كيان الرعية، يتمثل بالنخبة التي تستخلص؛ لتردي دورا ههما في الدفاع عن حياضها، والمقصود به هنا هم (الجنود)، الذين تتخذ منهم الذخيرة البشرية لخوض ملحمة الوجود. وقد أبز ما هم عليه من أحوال تصلح به كينونة الأمة، منبها بذلك المخاطب المقصود والضمني معا، وملحقا في الوقت نفسه ما ينمي هذه الفئة، وما يهتدى فيه سبل الحفاظ على حيوتها، ووجودها ودروها معا، لينتق إلى الصنف الآخر بعد الجنود والرعية، وهو ما يختطه قوله: (ثُمَّ لاَ قِوَامَ لِهذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلاَّ بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ وَيَجْمَعُونَ مِنْ الْمَنَافِعِ،

---

[١٨] نهج البلاغة: ٢١٤.

[١٩] المصدر نفسه: ٢١٥.

وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الأُمُورِ وَعَوَامِّهَا. وَلاَ قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلاَّ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِم وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ ممّا لاَ يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ. ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ. وَفِي اللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ).[٢٠]

الآخر هنا يتخذ من الطبقات الميسورة والمتكنة، منحى آخر عن المنحى الأول في المنزلة والتفكير والسلوك، لكنه يربطه في الوقت نفسه مبما يجب عليهم، من مساندة لفئة الجنود، والحقيقة أن الأمر الذي يتعلق بـ(القضاة والعمال والكتاب والتجار وذوي الصنعات)، حيث تتبّع عناصر المجتمع بحسب أهميتها في شد أوصاله، التي تحيل إلى واقع يتحتم عليهم أن لا يغيب عنهم، بل توظيفه لديمومة وجود المجتمع، ومن ثم فهم المسئولون مع الوالي على ذلك، وليس هذا فحسب بل أوكلت للوالي ولهم مسؤلية أخرى تتمثل في الطبقة الأخرى، وهم الضعفاء من الرعية، الذين هم محط أنظار الله تعالى، لما عليه من حال وكثرتهم في المجتمعات وحفاظا عليهم من الانحراف؛ ليعاود ذلك مفصلا في قضاء حوائجهم، وعلى نحو مخصوص يبينه قوله: (وَاجْعلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً، فَتَتَواضَعُ فِيهِ لله الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ عليه السلام يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لاَ يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ).[٢١]

---

[٢٠] نهج البلاغة: ٢١٨.

[٢١] المصدر نفسه: ٢١٨.

يؤكد الخطاب العلوي الجليل هنا ضرورة العناية بهذا الصنف من الرعية، من خلال التفرّغ الشخصي لهم من قبل الحاكم، إدامة عملية التواصل والتخاطب بين السادة والرعية، بما تفرضه سنة رسول الله ، صلى الله عليه وآله، حيث إبعاد البطانة عنهم في تلك المجالس، افسح مساحة الحرية الكافية لهم، بخلاف غيرهم الذين يتعتعون في كلامهم، كما يفعله الملوك الظلمة الذين كانوا يتخاطبون من خلال عبيدهم، وبذلك يعرض لنا تنظيما سياسيا متقدما، بحسب تعاليم الدين الإسلامي، ووسيلته القوية الأصيلة التي لا تقارن بما سواها. بل يذكره بالحديث الشريف الذي حشر في تضاعيف خطابه، بأن عملهم ذلك يجعلهم غير قادرين على جلب هيبة الأمة واحترامها. (وفي سياسة الإمام علي واجتماعياته، نعمة لا ترتوي من التأكيد عليها؛ لشدّة حاجتها إليها في عصرنا بالذات. كان الإمام علي يعلق الأهمية العظمى في السياسة والاجتماع على أخلاق الحاكم وأخلاق المواطن).[٢٢]

ما يفرض عليه اظر في أبعاد الجلوس للمظالم، ويزداد هذا الأمر في تأملت أمير المؤمنين علي عليه السلام، ليخاطب مولاه الأشتر، رضوان الله عليه، قائلا: (وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، أو نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الَعَمْدِ وَالْخَطَأ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَ وَالِي الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَابْتَلاَكَ بِهِمْ).[٢٣]

التقسيم البديع الذي ينطلق منه أمير المؤمنين علي عليه السلام، في تأملاته للرعية ينطلق من الجبلة الإلهية التي جُبل الناس عليها، حيث الخلق عيال الله تعالى

---

[٢٢] عظيم لا كالعظماء: رئيف خوري: ٦١.

[٢٣] نهج البلاغة: ٢١٦.

شأنه، وهم على صنفين لا يتجاوزونه (أخ في الدين، نظير في الخلق)، والملاحظ أن الفكر العلوي الجليل، يثير هذه المسألة في معرض الحديث عن وجوب اللين مع الرعية، وعدم تقييدهم و إلزامهم المتاعب، بما يودع ذلك من أثر خالد يلامس وجدان الرعية، ويجد صداه لدى أفراد تلك الطبقة، التي تنظر إلى ما على الحاكم أن يفعله، ومن هنا فإن الرؤية العلوية، تسعى إلى إلزام الولاة بالرفق برعاياهم، وعليه فإن (وقفة عند سيرة هذا الراعي العظيم، تملأ النفس إيمانا وطمانينة وحفزا على التسامي، وتنعش الروح وتشحنها بالقوة، فتقتحم ميادين الخير قوية مؤمنة، وهكذا يكون المثال الذي تقدمه سير العلماء، أجدى بكثير من عشرات الصحف حكما ومواعظ).[٢٤]

وهو الأمر الذي يؤدي بدوره إلى سير الأمور بيسر وسلامة، وعدم اضطراب أوصال المجتمع، ولاسيما أن هذا التوجيه المبارك، يتبع بتوجيه آخر يظهر في هذا النص الذي يربط الوالي برعيته، نقرأ منه: (وَأَمَّا بَعْدُ، فَلاَ تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلاَةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالأُمُورِ، وَالاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ، فَيَصْغُر عِندَهُمْ الْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ).[٢٥]

وكما هو واضح فإن أمير المؤمنين علي عليه السلام، يؤكد مبدا مهم من مبادئ نجاح الحاكم في عمله، وسلامة الرعية وسعادتها في ظل ذلك الحاكم، وهو (الظهور المستمر)، وعدم التواري عن الرعية، ولاسيما في أوقات مخصوصة، تحتاج فيه الرعية إلى معرفة أحوال حاكمها، ومدى مصداقية ما يخرج من جنابه من أوامر ونواهي، بما يشكّله في محصلة الأمر ذلك الظهور والتواصل من عنصر مهم، لتكون رؤية صحيحة من الطرفين حول شؤون البلاد والعباد، علما أن هذا الظهور

---

[٢٤] خاطرة من سيرة الإمام علي رضي الله عنه: سعيد الأفغاني: ١٣٩.

[٢٥] نهج البلاغة: ٢١٨.

والتواصل، لا يخفض من مكانة الحاكم، بل يعلو في عيون رعيته؛ بوصفه يؤدي دورا بارزا، بل يذهب الفكر العلوي الرصين إلى دقائق الأمور، ومنها الظهور في المسجد؛ حيث إقامة الصلاة، فيختص الوالي بجملة أمور، يجب أن يعها في الحسبان، وهو يتقدم الرعية للصلاة، نقرأ (وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلاَتِكَ لِلنَّاسِ، فَلاَ تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلاَ مُضَيِّعاً فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَلَهُ الْحَاجَةُ. وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى اليَمنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟ فَقَالَ: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلاَةِ أَضْعَفِهِمْ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيما).[٢٦]

وهنا نرى أن الرعية تأخذ حيزا كبيرا في الفكر العلوي، بوساطة هذا التوجيه الذي يطلقه للوالي في إمامة الصلاة، وهو الشأن الذي يبرز الرأفة والرحمة لهذه الصنف من الآخر، مراعيا في ذلك الأضعف في تلك الحشودن فضلا عن مراقبة حوائج الناس، وطبيعتهم الوجدانية والنفسية والاجتماعية، بما يسهم في نهاية الشأن إلى بيان ضرورة الحصول على حريتهم، وتحريك همهم لدينهم ودنياهم، ما يزيد في رصيدهم الحضاري، بمراعاة خصوصية الأفراد عامة، والمحافظة على هوية الصلاة والمصلين في ذلك المكان الشريف.

---

[٢٦] نهج البلاغة: ٢١٦.

صورة العدو:

صورة العدو بطبيعتها عن صورة الصديق، وهو ما يثير حولها الكثير من الاهتمام والشبهات، ما يؤدي في نهاية الأمر إلى وضع أسس مواجهة التفكير الخاص به، فضلا عن صد السلوكيات التي ينتج عنه ذلك التفكير، وقد كان للفكر العلوي ، وهو يرقب ذلك الآخر المزعج، أن ينزله في زاويته اللائقة بهم، وأن لا يترك الأمور على عواهنها، مراعيا كلّ احتمالات مواجهة ذلك العدو، سواء أكانت في أوقات الحرب أم في أوقات السلم، الأمر الذي يؤكد أن (هذه الخبرة كان لها أثرها في الفكر السياسي؛ حيث تعكس معاناة واتساع أفق، وبعد نظر، ومن معايشة ما هو متوافر لدينا من خطبه ووسائله، يتبين لنا مدة خصوبة هذا الفكر وتعدد كلياته، وربما كانت ظاهرة القيادة السياسية واحدة من أهم هذه الكليات ؛ فقد اختصها علي بالكثير من أقواله، فضلا عن أن كلامه بشأنها به دلالته المعاصرة).[٢٧]

ومن هنا يتأكد لدينا أن النظرة إلى الآخر، ولاسيما فيما يخص العدو، كانت تستند إلى هذا الخزين من المعارف والتجارب، الذي طوعها الفكر العلوي، وهو يخاطب المولى مالك الأشتر رضوان الله عليه.

ويمكن أن نقرأ هذا النص الوارد في حال الصلح مع العدو، دليلا على ما نقول: (وَلاَ تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ لله فِيهِ رِضىً، فإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ، وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ، وأَمْناً لِبِلاَدِكَ، وَلكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ فَخُذْ بِالْحَزْمِ، وَاتَّهِمْ فِي ذلِكَ حُسْنَ الظَّنّ). [٢٨]

---

[٢٧] القيادة السياسية في فكر علي بن أبي طالب: د. كمال المنوفي: ١٤٥.

[٢٨] نهج البلاغة: ٢١٨.

هنا يفسح للآخر مساحة كبيرة للصلح، وعدم رفضه جملة وتفصيلا، وهو الأمر الذي يسعى تشجيع الوالي على ما يعينه في ديمومة استراتيجيته في الحكم، كذلك أخذ الجنود وقتا للراحة من مدلهمات الحروب، ما يدفع في نهاية الأمر لى التعرف الكامل على حقائق الأمور وما يلفها من وقائع ومستجدات، غير أن الأمر يبقى متعلقا بجدية ذلك العدو من مسألة الصلح، وكذلك ما يمكن أن يقدم عليه من مغافلة الذات، ما يؤدي إلى أن بل تقيم دليلا على تلك المسألة، والحذر من نكير الخصومة والعداوة، التي سرعان ما تصير الصلح بلاء كبيرا على أهله' وهو ما يساير النهج العلوي الشريف؛ بوصف(الإمام علي حاكم دولة دينية، حيث كان الأمير فيها مجرد ممثل (خليفة) لله، ولا يستطيع أن يعارض حدود إرادته، وقد انتخب الأمام علي لهذا المركز لا لشيء، سوى إمكاناته في المحافظة على هذا الدور).[٢٩]

ويبقى الفكر العلوي يسير في مسايرة العدو ونوازعه، ولاسيما أن المسألة لديه تكون ككل لا يتجزأ من رؤية الآخر، التي تعمل على تقوية الصفوف ورصها، فضلا عن محاولة حشد الاختلاط العرقي. والإسهام الدؤوب في تهيئة الجيش وقياداته، كما يقول: (وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوٍّ لَكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمَانَةِ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً أَعْطَيْتَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ عزّ وجلّ شَيْءٌ النَّاسُ أَشدُّ عَلَيْهِ اجْتِماعاً، مَعَ تَفْرِيقِ أَهْوَائِهِمْ، وَتَشْتِيتِ آرَائِهِمْ، مِنَ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ، وَقَدْ لَزِمَ ذلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ؛ فَلاَ تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلاَ تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ وَلاَ تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ، فَإِنَّهُ لاَ يَجْتَرِئُ عَلَى اللهِ إِلاَّ جَاهِلٌ شَقِيّ).[٣٠]

---

[٢٩] الإمام علي وميكافيلي: د. عباس خضير كاظم: ٢٣.

[٣٠] نهج البلاغة: ٢١٧.

وهنا نلحظ أن ردة الفعل تجاه الآخر، تكون مقترنة بدرجة الوفاء من قبل العدو، التي تؤدي في نهاية الأمر إلى أن يخلق صورة للمجموعات البشرية ذات وعي لا بأس به، محذرا من الدر بالعهود مع العدو، التي يجب أن لا تختلط بنوازع العدو السابقة، بل ترى تلك الأحوال بما يستدل عليه من عاقبة الغدر مع المشركين.

أمير المؤمنين علي عليه السلام، ويربط هذا الأثر المترتب على الوفاء، بما جبله الله تعالى من سنن في خلقه، يقول: (وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ ويَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ، فَلاَ إِدْغَالَ وَلاَ مُدَالَسَ وَلاَ خِدَاعَ فِيهِ، وَلاَ تَعْقِدْ عَقْداً تَجُوزُ فِيهِ الْعِلَلُ وَلاَ تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ قَوْلٍ مر بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوْثِقَةِ، وَلاَ يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللهِ فِيهِ طَلِبَةٌ لا تَسْتَقِبلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلاَ آخِرَتَكَ).[٣١]

فهو يرى هذا الصلح بابا من أبوا الأمان، التي جعلها الله تعالى في عباده، بل يتحتم عليهم الوفاء به والسير في مسالكه، وان لا تدفعهم الضغوط النفسية والاجتماعية والاقتصادية إلى نقضه، وهو بهذا يُشخّص الذائقة المطبوعة برؤى إلهية ومن ثم يعمد على أن يطلقها حكما عميقا لطبيعة الأمور وحقيقتها؛ لأنه يتعامل مع الحقيقة المدركة أثناء التنقل في نوازع الآخر، الذي لم ينظر إليه نظرة سلبية كاملة، بل ترك له ما تترك النفس من طيبات، بمعنى أن العنوان لديه لم يلغ الإنسان.

---

[٣١] نهج البلاغة: ٢١٩.

نتائج البحث:

انتهت هذه الرحلة الموجزة في تأملات الذات والآخر في الفكر العلوي، من زاوية عهد مالك الأشتر رضوان الله تعالى عليه، بهذه النتائج:

ـ تأصّلت النظرة الواضحة إلى الحاكم من بوابة الاختلاف في طبيعة الحكام، والنظرة العلوية لهذه الشخصية، ما جعلها تدور في حلقتها السياسية؛ لتؤسس أنموذجا إنسانيا، يتعامل مع الآخر من منظور متعدد الزوايا؛ نتيجة طبيعية للتنوع الفكري الذي يحمله في مشروعه.

ـ كان لبطانة الولاة حيزا كبيرا في الذهنية العلوية، لما لها من أثر في توجيه مسارات المجتمع، ولاسيما ما يخص الطبقات الأخرى من الرعية، وقد أبرزت الصورة العلوية لهذه الفئة الحذر الشديد، مما يدور في ذهنيتهم المشبعة بالإقصاء للآخر.

ـ ظهرت صورة الرعية من خلال التأثير العقائدي و الحضاري، الذي نقل بوساطة طبيعتهم، وملازمة الفكر العلوي لما يجب أن يكونوا عليه، فكان أن أزهرت صورة إيجابية لما يتحتم على الوالي، وهو يسير أمور هذه الفئة بالعدل والحرية.

ـ تعلقت صورة العدو بحقيقة الأشياء الموضوعية، التي تنسجم مع الحقائق المتجاوزة، فضلا عن رؤية علوية حددت تلك التأملات إلى حد كبير، عندما وضعت عددا من الحقائق الحسية الملموسة في محيطها الإنساني.

مصادر البحث ومراجعه:

ــ أنا والآخر سايكولوجية العلاقات المتبادلة:عبد المنعم شحاتة، أيترك للنشر ، ط١، القاهرة، ٢٠٠١.

ــ صورة الآخر العربي حول مفهوم صورة الذات وصورة الآخر: فتحي أبو العينين، المركز الثقافي بيروت، ٢٠٠٠.

ــ صورة الآخر في الرواية العراقية الحديثة: د. محمد قاسم لعيبي، دار الفراهيدي، بغداد، ٢٠١١.

ــ المركزية الإسلامية صورة الآخر في المخيل الإسلامي خلال القرون الوسطى: د. عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠١.

ــ نهج البلاغة: جمع الشريف الرضي، مؤسسة أنصاريان، ط١، قم المقدسة، ٢٠٠٥.

ــ الإمام علي أقرب المقربين وأعظم المقتدين بالرسول الأمين: عبد المنعم حمادة، مجلة الموسم، العدد ٩٩، السنة ٢٥، ٢٠١٣.

ــ الإمام علي وميكافيلي: د. عباس خضير كاظم، مجلة الموسم، العدد ٩٩، السنة ٢٥، ٢٠١٣.

ــ التنمية الشاملة والعدالة الاجتماعية في فكر الإمام علي: علي أبو الخير، مجلة الموسم، العدد٩٩، السنة ٢٥، ٢٠١٣.

ــ حكم علي اتحاد للعدل والحرية: صدر الدين شرف الدين، مجلة الموسم، العدد ٩٩، السنة ٢٥، ٢٠١٣.

ــ خاطرة من سيرة الإمام علي رضي الله عنه: سعيد الأفغاني، مجلة الموسم، العدد ٩٩، السنة ٢٥، ٢٠١٣.

ــ صورة الغرب في الأدب العربي رواية فياض لخيري الذهبي نموذجا، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٤، العدد الثالث والرابع، ٢٠٠٨.

ــ عظيم لا كالعظماء: رئيف خوري، مجلة الموسم، العدد ٩٩، السنة ٢٥، ٢٠١٣.

ــ القيادة السياسية في فكر علي بن أبي طالب: د. كمال المنوفي، مجلة الموسم، العدد٩٩، السنة ٢٥، ٢٠١٣.